بها القوة؛ لأن القوة لا توصف بهذه الأوصاف.

فنتبين بهذا أن قول هؤلاء المحرفين الذين قالوا: المراد باليد القوة باطل من عدة أوجه.

وقد سبق أن صفات الله عز وجل من الأُمور الخبرية الغيبية التي ليس للعقل فيها مجال، وما كان هذا سبيله؛ فإن الواجب علينا إبقاؤه على ظاهره؛ من غير أن نتعرض له.

* * *

● إثبات العينين لله تعالى:

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى لإثبات العينين لله تعالى ثلاث آيات.

الآية الأولى: قوله: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

* الخطاب هنا للنبي عليه الصلاة والسلام.

* والصبر: بمعنى الحبس، ومنه قولهم: قُتِلَ صبراً؛ أي: قتل وقد حُبِسَ للقتل.

فالصبر في اللغة: بمعنى الحبس.

وفي الشرع: قالوا: هو الصبر لأحكام الله، يعني: حبس النفس لأحكام الله.

وأحكام الله عز وجل شرعية وكونية: والشرعية: أوامر ونواهٍ؛ فالصبر على طاعة الله صبر على الأوامر، والصبر عن معصيته صبر عن النواهي. والكونية: أقدار الله تعالى، فيُصْبَرُ على أقداره وقضائه.

وهذا معنى قول بعضهم الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

فقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾: يتناول الأقسام الثلاثة:

١ ـ الصبر على طاعة الله.

٢ ـ وعن معصية الله.

٣ ـ وعلى أقدار الله.

أي: اصبر لحكم ربك الكوني والشرعي.

وبهذا نعرف أن التقسيم الذي ذكره العلماء، وقالوا: إن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله: داخل في هذه الكلمة: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

ووجه الدخول: أن الحكم إما كوني وإما شرعي، والشرعي أوامر ونواهٍ. والنبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل بأوامر، ونهاه عن نواهٍ، وقدر عليه مقدورات:

فالأوامر مثل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذه أوامر عظيمة؛ يعني: لو قيل لإنسان: اعبد ربك؛ فإنه يتمكن من

العبادة، لكن الدعوة والتبليغ أمر صعب؛ لأنه يتعب في معاناة الآخرين وجهادهم، فيكون صعباً.

وأما النواهي؛ فقد نهاه عن الشرك؛ قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... وما أشبه ذلك.

وأما الأحكام القدرية: فقد حصل عليه أذى من قومه؛ أذى قولي وأذى فعلي، لا يصبر عليه إلا أمثال الرسول عليه الصلاة والسلام:

آذوه بالقول: بالسخرية، والاستهزاء، والتهجين، وتنفير الناس عنه.

وآذوه بالفعل: كان ساجداً تحت الكعبة في آمن بقعة من الأرض، ساجداً لربه، فذهبوا، وأتوا بسلى الناقة، ووضعوه على ظهره وهو ساجد[1]!!

ليس هناك أبلغ من هذه الأذية، مع العلم بأنه لو يدخل كافر مشرك إلى الحرم؛ لكان عندهم آمناً، لا يؤذونه فيه، بل يكرمونه ويطعمونه النبيذ ويسقونه ماء زمزم!! ومحمد عليه الصلاة والسلام ساجداً لله يؤذونه هذا الأذى!!

---

(١) لما رواه البخاري (٣٨٥٤)، ومسلم (١٧٩٤)؛ عن عبد الله بن مسعود قال: «بينما النبي ﷺ ساجد وحوله ناس من قريش، جاء عقبة بن أبي مُعيط بسَلَى جزور فقذفه على ظهر النبي ﷺ».

كانوا يأتون بالعذرة والأنتان والأقذار يضعونه عند عتبة بابه!!

وخرج إلى أهل الطائف، وماذا صار؟! صار الإيذاء العظيم؛ صف سفهاؤهم وغلمانهم على جانبي الطريق، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه، فلم يفق إلا في قرن الثعالب[1].

* فصبر على حكم الله، ولكنه صبر مؤمن يؤمن بأن العاقبة له؛ لأن الله قال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾... هذا الاعتناء والحفاوة... أكرم شيء يكرم به الإنسان أن تقول له: أنت بعيني، أنت بقلبي... وما أشبه ذلك.

أنت بعيني؛ معناه: أنا أُلاحظك بعيني. وهذا تعبير معروف عند الناس، يكون تمام الحراسة والعناية والحفظ بمثل هذا التعبير: أنت بعيني.

إذاً؛ قوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾؛ يعني: فإنك محروس غاية

---

(١) لما رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)؛ عن عائشة رضي الله عنها ـ زوج النبي ﷺ ـ أنها قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يوم أُحد، قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلاّ وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فنادى فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فنادى ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً».

الحراسة، محفوظ غاية الحفظ.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: أعيننا معك؛ نحفظك، ونرعاك، ونعتني بك.

في الآية الكريمة إثبات العين لله عز وجل، لكنها جاءت بصيغة الجمع؛ لما سنذكر إن شاء الله تعالى.

العين من الصفات الذاتية الخبرية: الذاتية: لأنه لم يزل ولا يزال متصفاً بها. الخبرية: لأن مسماها بالنسبة إلينا أجزاء وأبعاض.

فالعين منا بعض من الوجه، والوجه بعض من الجسم، لكنها بالنسبة لله لا يجوز أن نقول: إنها بعض من الله؛ لأنه سبق أن هذا اللفظ لم يرد، وأنه يقتضي التجزئة في الخالق، وأن البعض أو الجزء هو الذي يجوز بقاء الكل بفقده، ويجوز أن يفقد، وصفات الله لا يجوز أن تفقد أبداً، بل هي باقية.

وقد دل الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أن لله عينين اثنتين فقط؛ حين وصف الدجال وقال: «إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور»[1]، وفي لفظ: «أعور العين اليمنى»[2].

وقد قال بعض الناس معنى (أعور)؛ أي: مَعِيب، وليس من عَورِ العين!!

وهذا لا شك أنه تحريف وتجاهل للفظ الصحيح الذي في

---

(١) رواه: البخاري (٣٠٥٧)، ومسلم (١٦٩)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه: البخاري (٧٤٠٧)، ومسلم (١٦٩)؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

البخاري وغيره: «أعور العين اليمنى، كأن عينه عنبة طافية»[1] وهذا واضح.

ولا يقال أيضاً: (أعور) باللغة العربية؛ إلا لعور العين، أما إذا قيل: (عور) أو (عوار)؛ فربما يراد به مطلق العيب.

وهذا الحديث يدل على أن لله تعالى عينين اثنتين فقط.

ووجه الدلالة أنه لو كان لله أكثر من اثنتين؛ لكان البيان به أوضح من البيان بالعور؛ لأنه لو كان لله أكثر من عينين؛ لقال: إن ربكم له أعين؛ لأنه إذا كان له أعين أكثر من ثنتين؛ صار وضوح أن الدجال ليس برب أبين.

وأيضاً: لو كان لله عز وجل أكثر من عينين؛ لكان ذلك من كماله، وكان تركُ ذكره تفويتاً للثناء على الله؛ لأن الكثرة تدل على القوة والكمال والتمام، فلو كان لله أكثر من عينين؛ لبينها الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لئلا يفوتنا اعتقاد هذا الكمال، وهو الزائد على العينين الثنتين.

وذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه «الصواعق المرسلة» حديثاً، لكنه ضعيف لانقطاعه، وهو: «إن العبد إذا قام في الصلاة قام بين عيني الرحمن...»[2]: «عيني»: هذه تثنية، لكن الحديث

---

(١) تقدم تخريجه في الحديث السابق.

(٢) ذكره ابن القيم في كتاب «الصواعق» (٢٥٦)، وقال الألباني في «الضعيفة» (١٠٢٤): ضعيف جداً، رواه العقيلي في «الضعفاء» (ص٢٤)، والبزار في «مسنده»=

ضعيف، واعتمادنا في عقيدتنا هذه على الحديث الصحيح؛ حديث الدجال؛ لأنه واضح لمن تأمله.

ولقد ذكر ذلك عثمان بن سعيد الدرامي رحمه الله في «رده على بشر المريسي»، وكذلك أيضاً ذكره ابن خزيمة في «كتاب التوحيد»، وذكر أيضاً إجماع السلف على ذلك أبو الحسن الأشعري رحمه الله وأبو بكر الباقلاني، والأمر في هذا واضح.

فعقيدتنا التي ندين لله بها: أن لله تعالى عينين اثنتين، لا زيادة.

فإن قيل: إن من السلف من فسر قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ بقوله: بمرأى منا. فسره بذلك أئمة سلفيون معروفون، وأنتم تقولون: إن التحريف محرم وممتنع؛ فما الجواب؟

فالجواب: أنهم فسروها باللازم، مع إثبات الأصل، وهي العين، وأهل التحريف يقولون: بمرأى منا؛ بدون إثبات العين، وأهل السنة والجماعة يقولون: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: بمرأى منا، مع إثبات العين.

لكن ذكر العين هنا أشد توكيداً وعناية من ذكر مجرد الرؤية، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

قالت المعطلة: أجلبتم علينا بالخيل والرَّجِل في إنكاركم علينا التأويل، وأنتم أولتم فأخرجتم الآية عن ظاهرها؛ فالله يقول:

= (٥٥٣ ـ كشف الأستار).

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ فخذوا بالظاهر، وإذا أخذتم بالظاهر؛ كفرتم، وإذا لم تأخذوا بالظاهر؛ تناقضتم؛ فمرة تقولون: يجوز التأويل، ومرة تقولون: لا يجوز التأويل، وتسمونه تحريفاً، وهل هذا إلا تحكم بدين الله؟!

قلنا: نأخذ بالظاهر، وعلى العين والرأس، وهو طريقتنا، ولا نخالفه.

قالوا: الظاهر من الآية أن محمداً ﷺ بعين الله، وسط العين؛ كما تقول: زيد بالبيت، زيد بالمسجد؛ فالباء للظرفية، فيكون زيد داخل البيت وداخل المسجد، فيكون قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؛ أي: داخل أعيننا! وإذا قلتم بهذا كفرتم؛ لأنكم جعلتم الله محلاً للخلائق؛ فأنتم حلولية، وإن لم تقولوا به؛ تناقضتم؟!

قلنا لهم: معاذ الله! ثم معاذ الله! ثم معاذ الله! أن يكون ما ذكرتموه ظاهر القرآن، وأنتم إن اعتقدتم أن هذا ظاهر القرآن؛ كفرتم؛ لأن من اعتقد أن ظاهر القرآن كفر وضلال؛ فهو كافر ضال.

فأنتم توبوا إلى الله من قولكم: إن هذا هو ظاهر اللفظ! واسألوا جميع أهل اللغة من الشعراء والخطباء: هل يقصدون بمثل هذه العبارة أن الإنسان المنظور إليه بالعين حالٌّ في جفن العين؟! اسألوا من شئتم من أهل اللغة أحياءً وأمواتاً !!

فأنت إذا رأيت أساليب اللغة العربية؛ عرفت أن هذا المعنى

الذي ذكروه وألزمونا به لا يرد في اللغة العربية؛ فضلاً عن أن يكون مضافاً إلى الرب عز وجل؛ فإضافته إلى الرب كفر منكر، وهو منكر لغةً وشرعاً وعقلاً.

فإن قيل: بماذا تفسرون الباء في قوله: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾؟

قلنا: نفسرها بالمصاحبة، إذا قلت: أنت بعيني؛ يعني: أن عيني تصحبك وتنظر إليك، لا تنفك عنك؛ فالمعنى: أن الله عز وجل يقول لنبيه: اصبر لحكم الله؛ فإنك محوط بعنايتنا وبرؤيتنا لك بالعين حتى لا ينالك أحد بسوء.

ولا يمكن أن تكون الباء هنا للظرفية؛ لأنه يقتضي أن يكون رسول الله ﷺ في عين الله، وهذا محال.

وأيضاً؛ فإن رسول الله ﷺ خوطب بذلك وهو في الأرض؛ فإذا قلتم: إنه كان في عين الله! كانت دلالة القرآن كذباً.

وهذا وجه آخر في بطلان دعوى أن ظاهر القرآن أن الرسول ﷺ في عين الله تعالى.

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٣ ـ ١٤].

* ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾: الضمير يعود على نوح عليه الصلاة والسلام.

* وقوله: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾؛ أي: على سفينةٍ ذات ألواح ودسر، وهذه السفينة كان عليه الصلاة والسلام يصنعها، وكان يمر به قومه، فيسخرون منه، فيقول: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ

مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨].

صنعها بأمر الله ورعاية الله وعنايته، وقال الله له: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [هود: ٣٧]؛ فالله تعالى ينظر إليه وهو يصنع الفلك، ويلهمه كيف يصنعها.

* ووصفها الله هنا في قوله: ﴿ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾: ﴿ذَاتِ﴾: بمعنى: صاحبة. والألواح: الخشب. والدسر: ما يربط به الخشب كالمسامير والحبال وما أشبه ذلك، وأكثر المفسرين على أن المراد بها المسامير التي تربط بها الأخشاب[1].

* ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: هذا الشاهد: ﴿تَجْرِي﴾؛ أي: ذات الألواح والدسر بأعين الله عز وجل. والمراد بالأعين هنا عينان فقط؛ كما مرَّ. ومعنى تجري بها؛ أي: مصحوبة بنظرنا بأعيننا؛ فالباء هنا للمصاحبة، تجري على الماء الذي نزل من السماء ونبع من الأرض؛ لأن نوحاً عليه الصلاة والسلام دعا ربه ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]؛ قال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١١ ـ ١٢]؛ فكانت هذه السفينة تجري بعين الله عز وجل.

قد يقول قائل: لماذا لم يقل: وحملناه على السفينة، أو: حملناه على فلك، بل قال: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾؟

---

(١) قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والقرطبي وقتادة وابن زيد واختاره ابن جرير. انظر: تفسير الطبري وابن كثير.

والجواب على هذا أن نقول: عَدَلَ عن التعبير بالفلك والسفينة إلى التعبير بذات ألواح ودُسر؛ لوجوه ثلاثة:

الوجه الأول: مراعاة للآيات وفواصلها؛ فلو قال: حملناه على فلك؛ لم تتناسب هذه الآية مع ما بعدها ولا ما قبلها. ولو قال: على سفينة؛ كذلك، لكن من أجل تناسب الآيات في فواصلها وفي كلماتها قال: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾.

الوجه الثاني: من أجل أن يتعلم الناس كيف يصنعون السفن، وبيان أنها من الألواح والمسامير، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥]؛ فأبقى الله تعالى علمها آية للخلق يصنعون كما ألهم الله تعالى نوحاً.

الوجه الثالث: الإشارة إلى قوتها، حيث كانت من ألواح ودسر، والتنكير هنا للتعظيم.

وروعي التركيز على مادتها، ونظير ذلك في ذكر الوصف دون الموصوف قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ: ١١] ولم يقل: دُرُوعاً، من أجل العناية بفائدة هذه الدروع، وهي أن تكون سابغة تامة؛ فهذه مثلها.

* وقوله: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾؛ نقول فيها ما قلناه في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨].

الآية الثالثة: قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه: ٣٩]:

* الخطاب لموسى عليه الصلاة والسلام:

* فقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾: اختلف المفسرون في معناها:

فمنهم من قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾؛ يعني: أني أحببتك.

ومنهم من قال: ألقيت عليك محبة من الناس، والإلقاء من الله؛ أي: أن: من رآك أحبك، وشاهد هذا أن امرأة فرعون لما رأته أحبته وقالت: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩].

ولو قال قائل: أيمكنكم أن تحملوا الآية على المعنيين؟ لقلنا: نعم! بناءً على القاعدة، وهو أن الآية إذا كانت تحتمل معنيين لا منافاة بينهما؛ فإنها تُحمل عليهما جميعاً؛ فموسى عليه الصلاة والسلام محبوب من الله عز وجل، ومحبوب من الناس، إذا رآه الناس؛ أحبوه، والواقع أن المعنيين متلازمان؛ لأن الله تعالى إذا أحب عبداً؛ ألقى في قلوب العباد محبته.

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: أحبه الله وحببه إلى خلقه.

* ثم قال: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: الصنع: جعل الشيء على صفة معينة؛ كصنع صفائح الحديد قدوراً، وصنع الخشب أبواباً،

وصنع كل شيء بحسبه؛ فصناعة البيت: بناء البيت، وصناعة الحديد: جعلها أواني مثلاً أو محركات، وصنع الآدمي: معناه التربية البدنية والعقلية: تربيته البدنية بالغذاء، وتربيته العقلية بالآداب والأخلاق وما أشبه ذلك.

وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له ذلك؛ فإنه ربي على عين الله:

لما التقطه آل فرعون؛ حماه الله عز وجل من قتلهم، مع أنهم كانوا يقتلون أبناء بني إسرائيل، فقضى الله تعالى أن هذا الذي تقتل الناس من أجله سيتربى في أحضان آل فرعون؛ فالناس يقتلون من أجله، وهو يتربى آمناً في أحضانهم. وانظر إلى هذه القدرة العظيمة!!

ومن تربية الله له عرض على المراضع ـ النساء اللاتي يرضعنه ـ، ولكنه ما رضع من أي واحدة: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾؛ [القصص: ١٢] فما رضع من امرأة قط، وكانت أخته قد انتدبت من قِبل أُمه، فرأتهم، وقالت: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؟ قالوا: نعم؛ نحن نود هذا. فقالت: اتبعوني. فتبعوها؛ قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]! ولم يرضع من امرأة قط، مع أنه رضيع! لكن هذا من كمال قدرة الله وصدق وعده؛ لأن الله عز وجل قال لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧].

الأم شفقتها على ابنها لا أحد يتصورها؛ قيل لها: اجعلي ابنك في صندوق، وألقيه في البحر، وسيأتي إليك.

لولا الإيمان الذي مع هذه المرأة؛ ما فعلت هذا الشيء! تلقي ابنها في البحر! لو أن ابنها سقط في تابوته في البحر؛ لجرته فكيف وهي التي تلقيه؟! لكن لثقتها بالرب عز وجل ووعده ألقته في اليم.

وقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ بالإفراد؛ هل يُنافي ما سبق من ذكرها بالجمع؟!

الجواب: لا تنافي، وذلك لأن المفرد المضاف يعُم فيشمل كل ما ثَبَت لله من عين، وحينئذ لا منافاة بين المفرد وبين الجمع أو التثنية.

إذاً؛ يبقى النظر بين التثنية والجمع؛ كيف نجمع بينهما؟!

الجواب أن نقول: إن كان أقل الجمع اثنين؛ فلا منافاة؛ لأننا نقول: هذا الجمع دال على اثنتين؛ فلا ينافيه. وإن كان أقل الجمع ثلاثة؛ فإن هذا الجمع لا يُراد به الثلاثة، وإنما يراد به التعظيم والتناسب بين ضمير الجمع وبين المضاف إليه.

وقد فسر أهل التحريف والتعطيل العين بالرؤية بدون عين، وقالوا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾: برؤية منا، ولكن لا عين، والعين لا يمكن أن تثبت لله عز وجل أبداً؛ لأن العين جزء من الجسم؛ فإذا أثبتنا العين لله؛ أثبتنا تجزئةً وجسماً، وهذا شيء ممتنع؛ فلا يجوز،

ولكنه ذكر العين من باب تأكيد الرؤية؛ يعني: كأنما نراك ولنا عين، والأمر ليس كذلك!!

فنقول لهم: هذا القول خطأ من عِدَّة أوجه:

الوجه الأول: أنه مخالف لظاهر اللفظ.

الثاني: أنه مخالف لإجماع السلف.

الثالث: أنه لا دليل عليه؛ أي: أن المراد بالعين مجرد الرؤية.

الرابع: أننا إذا قلنا بأنها الرؤية، وأثبت الله لنفسه عيناً؛ فلازم ذلك أنه يرى بتلك العين، وحينئذ يكون في الآية دليل على أنها عين حقيقية.

* * *

● **صفة السمع والبصر لله تعالى:**

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله في إثبات صفتي السمع والبصر آيات سبعاً:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

* ﴿قَدْ﴾: للتحقيق.

والمُجادِلة: هي التي جاءت إلى النبي ﷺ تشتكي زوجها

حين ظاهر منها.

والظهار: أن يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي. أو كلمة نحوها.

وكان الظهار في الجاهلية طلاقاً بائناً، فجاءت تشتكي إلى رسول الله ﷺ، وتبين له كيف يطلقها هذا الرجل ذلك الطلاق البائن وهي أُم أولاده، وكانت تحاور النبي ﷺ ؛أي: تراجعه الكلام، فأفتاها الله عز وجل بما أفتاها به في الآيات المذكورة.

* والشاهد من هذه الآيات قوله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾؛ ففي هذا إثبات السمع لله سبحانه وتعالى، وأنه يسمع الأصوات مهما بعدت ومهما خفيت.

قالت عائشة رضي الله عنها: «تبارك (أو قالت: الحمد لله) الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي ناحية البيت، وإني ليخفى عليَّ بعض حديثها»[1]. هذا معنى حديثها.

والسمع المضاف إلى الله عز وجل ينقسم إلى قسمين:

١ ـ سمع يتعلق بالمسموعات؛ فيكون معناه إدراك الصوت.

٢ ـ وسمع بمعنى الاستجابة؛ فيكون معناه أن الله يجيب من دعاه؛ لأن الدعاء صوت ينطلق من الداعي، وسَمِعَ الله دعاءه؛ يعني: استجاب دعاءه، وليس المراد سمعه مجرد سماع فقط؛ لأن

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ١٠٤).

هذا لا فائدة منه، بل الفائدة أن يستجيب الله الدعاء.

فالسمع الذي بمعنى إدراك الصوت ثلاثة أقسام:

أحدها: ما يقصد به التهديد.

والثاني: ما يقصد به التأييد.

والثالث: ما يقصد به بيان إحاطة الله سبحانه وتعالى.

١ ـ أما ما يقصد به التهديد؛ فكقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

٢ ـ وأما ما يقصد به التأييد؛ فكقوله تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]؛ أراد الله عز وجل أن يؤيد موسى وهارون بذكر كونه معهما يسمع ويرى؛ أي: يسمع ما يقولان وما يقال لهما، ويراهما ومن أرسلا إليه، وما يفعلان، وما يفعل بهما.

٣ ـ وأما ما يقصد به بيان الإحاطة؛ فمثل هذه الآية، وهي: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١].

الآية الثانية: قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

* ﴿لَّقَدْ﴾: جملة مؤكدة باللام، و(قد)، والقسم المقدر؛ تقديره: والله؛ فهي مؤكدة بثلاثة مؤكدات.

والذين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾: هم اليهود قاتلهم الله؛ فهم وصفوا الله بالعيب؛ قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وسبب قولهم هذا: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٤٥]، قالوا للرسول ﷺ: يا محمد! إن ربك افتقر، يسأل القرض منا.

الآية الثالثة: قوله: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

* ﴿أَمْ﴾ في مثل هذا التركيب؛ يقولون: إنها متضمنة معنى (بل)، والهمزة؛ يعني: بل أيحسبون؛ ففيها إضراب وفيها استفهام؛ أي: بل أيحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم.

* والسر: ما يسره الإنسان إلى صاحبه.

والنجوى: ما يناجي به صاحبه ويخاطبه؛ فهو أعلى من السر.

والنداء: ما يرفع به صوته لصاحبه.

فها هنا ثلاثة أشياء: سر ومناجاة ونداء.

فمثلاً؛ إذا كان شخص إلى جانبك، وساررته؛ أي: كلمته بكلامٍ لا يسمعه غيره؛ نسمي هذا مُسارَّةً.

وإذا كان الحديث بين القوم يسمعونه كلهم ويتجاذبونه؛ سُمّي مناجاة.

وأما المناداة؛ فتكون من بعيد لبعيد.

فهؤلاء يسرون ما يقولونه من المعاصي، ويتناجون بها؛ فيقول الله عز وجل مهدداً إياهم: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ۚ بَلَىٰ﴾.

* و﴿بلى﴾: حرف إيجاب؛ يعني: بلى نسمع، وزيادة على ذلك: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: عندهم يكتبون ما يسرون وما به يتناجون، والمراد بالرسل هنا الملائكة الموكلون بكتابة أعمال بني آدم؛ ففي هذه الآية إثبات أن الله تعالى يسمع سرهم ونجواهم.

الآية الرابعة: قوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦].

* الخطاب لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام؛ يقول الله سبحانه وتعالى لهما: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾؛ أي: أسمع ما تقولان، وأسمع ما يقال لكما؛ وأراكما، وأرى من أرسلتما إليه، وأرى ما تفعلان، وأرى ما يُفعل بكما.

لأنه إما أن يساء إليهما بالقول أو بالفعل؛ فإن كان بالقول؛ فهو مسموع عند الله، وإن كان بالفعل؛ فهو مرئي عند الله.

الآية الخامسة: قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

* الضمير في ﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ يعود إلى من يسيء إلى النبي ﷺ، لقوله: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ * أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ * أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ٩ ـ ١٤]،

وقد ذكر المفسرون أن المراد به أبو جهل[1].

وفي هذه الآية: إثبات صفة الرؤية لله عز وجل.

والرؤية المضافة إلى الله لها معنيان:

المعنى الأول: العلم.

والثاني: رؤية المبصرات؛ يعني: إدراكها بالبصر.

فمن الأول: قوله تعالى عن يوم القيامة: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦]؛ فالرؤية هنا رؤية العلم؛ لأن اليوم ليس جسماً يرى، وأيضاً هو لم يكن بعد؛ فمعنى: ﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾؛ أي: نعلمه قريباً.

* وأما قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾؛ فهي صالحة لأن تكون بمعنى العلم وبمعنى الرؤية البصرية، وإذا كانت صالحة لهما، ولا منافاة بينهما وجب أن تُحمل عليهما جميعاً، فيقال: إن الله يرى؛ أي: يعلم ما يفعله هذا الرجل وما يقوله، ويراه أيضاً.

الآية السادسة: قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢٢٠].

* قبل هذه الآية قوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧].

* والرؤية هنا رؤية البصر؛ لأن قوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٦٢٦).

لا تصح أن تكون بمعنى العلم؛ لأن الله يعلم به حين يقوم وقبل أن يقوم، وأيضاً لِقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، وهو يؤيد أن المراد بالرؤية هنا رؤية البصر.

* ومعنى الآية: أن الله تعالى يراه حين يقوم للصلاة وحده، وحين يتقلب في الصلاة مع الساجدين في صلاة الجماعة.

* ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ أي: الله الذي يراك حين تقوم: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وفي الآية هنا ضمير الفصل (هو)؛ من فوائده الحصر؛ فهل الحصر هنا حقيقي؛ بمعنى: أنه حصر لا يوجد شيء من المحصور في غير المحصور فيه، أو هو إضافي؟

الجواب: هو إضافي من وجه حقيقي من وجه؛ لأن المراد بـ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ هنا: ذو السمع الكامل المدرك لكل مسموع، وهذا هو الخاص بالله عز وجل، والحصر بهذا الاعتبار حقيقي، أما مطلق السمع؛ فقد يكون من الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ فجعل الله تعالى الإنسان سميعاً بصيراً. وكذلك ﴿عَلِيمٍ﴾؛ فإن الإنسان عليم؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، لكن العلم المطلق ـ أي: الكامل ـ خاص بالله سبحانه وتعالى؛ فالحصر بهذا الاعتبار حقيقي.

وفي هذه الآية الجمع بين السمع والرؤية.

الآية السابعة: قوله: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

* والذي قبل هذه الآية: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٣ ـ ١٠٤].

* في هذه الآية يقول: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

قال ابن كثير وغيره: قال مجاهد: هذا وعيد ـ يعني من الله تعالى ـ للمخالفين أوامره؛ بأن أعمالهم ستُعْرَض عليه وعلى الرسول والمؤمنين، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة، وقد يظهر الله ذلك للناس في الدنيا.

والرؤية هنا شاملة للعلمية والبصرية.

ففي الآية: إثبات الرؤية بمعنييها: الرؤية العلمية، والرؤية البصرية.

وخلاصة ما سبق من صفتي السمع والرؤية:

أن السمع ينقسم إلى قسمين:

١ ـ سمع بمعنى الاستجابة.

٢ ـ وسمع بمعنى إدراك الصوت.

وأن إدراك الصوت ثلاثة أقسام.